المحاضرة السابعة: الاتجاه البنيوي(محمد عابد الجابري)

أسّس محمد عابد الجابري(1935 - 2010)مشروعه حول مفهوم " نقد العقل العربي" الذي أعطاه عنوانا لكتبه الأربعة الرئيسية: تكوين العقل العربي، بنية العقل العربي، العقل السياسي العربي، العقل الأخلاقي العربي، ويعني بهذا المفهوم: « النقـد الابستيمولوجي للتراث العربي في مستويين: تكويني تاريخي ونسقي بنيوي، وفي حقول ثلاثة هي: المعرفة والسياسة والأخلاق، و الهدف من المشروع هو تأسيس "عصر تدوين جديد" »

أولا: مشروع نقد العقل العربي (الحقل المعرفي)

المحور الأول من مشروعه لنقد العقل العربي، يدرس الحقل المعرفي في كتابيه:(تكوين العقل العربي) و (بنية العقل العربي).

يعتبر الجابري في كتابه: **(تكوين العقل العربي)** أنّ العقل العربي تشكّل و تكوّن خلال عصرالتدوين، والثقافة العربية بوصفها الإطار المرجعي للعقل العربي، نعتبرها ذات زمن واحد، منذ أن

تشكلت إلى اليوم، زمن راكد، يعيشه الإنسان العربي اليوم مثلما عاشه أجداده في القرون الماضية: « الثقافة العربية بهذا المعنى، وبالتالي العقل العربي ذاته، إنما تشكلت ككيان ثبتت أركانه وتعينت حدوده واتجاهاته خلال الفترة المعروفة في تاريخ هذه الثقافة بـ "عصر التدوين" الفترة التي رسمت خلالها في الوعي العربي صورة العصر الجاهلي والعصر الإسلامي الأول، وهي نفسها الفترة التي نقلت خلالها إلى اللغة العربية وبالتالي إلى الوعي العربي ذاته صور من الثقافات الأجنبية»

وعصر التدوين كما يرى الجابري حاضر في الماضي العربي الإسلامي السابق له ، وفي كل ماض آخر منظور إليه من داخل الثقافة العربية الإسلامية، كما هو حاضر في كل مختلف الفترات التي أعقبت عصر التدوين، هو حاضر في كل ذلك بكل معطياته وصراعاته وتناقضاته

الإيديولوجية أيضا:« إن المعطيات والصراعات والتناقضات التي عرفها عصر التدوين والتي تشكل هويته التاريخية هي المسؤولة عن تعدد الحقول الإيديولوجية والنظم المعرفية في الثقافة العربية، كما وأنها هي المسؤولة عن تعدد المقولات وصراعها في العقل العربي»

أما في كتابه **(بنية العقل العربي)** فيميّز بين ثلاثة أنظمة معرفية تتوزع إليها خارطة العقل العربي:

ـ النظام المعرفي الأول (البيان): يقصد الجابري بالبيانيّين جميع المفكرين الذين أنتجتهم الحضارة العربية الإسلامية والذين كانوا أو ما يزالون يصدرون في رؤاهم وطريقة تفكيرهم عن الحقل المعرفي الذي بلورته وكرّسته العلوم العربية الإسلامية ونعني بها النحو والفقه والكلام والبلاغة ، وبالأخص منهم:« أولئك الذين ساهموا في تقنين هذا الحقل المعرفي: تحديده وحصر أقسامه وضبط آليات التفكير داخله والإفصاح عن نوع الرؤية التي يحملها عن العالم. إنهم بكلمة واحدة "علماء البيان" من لغويين ونحاة وبلاغيين وعلماء أصول الفقه وعلماء الكلام، إن هؤلاء جميعا ينتمون إلى حقل معرفي واحد يؤسسه نظام معرفي واحد هو النظام المعرفي البياني»

ـ النظام المعرفي الثاني(العرفان): يعتبر الجابري أن "العرفان" نظام معرفي ومنهج في اكتساب المعرفة ورؤية للعالم، وأيضا موقفا منه، انتقل إلى الثقافة العربية الإسلامية من الثقافات التي كانت سائدة قبل الإسلام في الشرق الأدنى، والعرفان في اللغات الأجنبية يسمى "الغنوص" وهي كلمة يونانية الأصل ومعناها المعرفة، وقد استعملت أيضا بمعنى العلم والحكمة، غير أن ما يميز العرفان هو أنه من جهة معرفة بالأمور الدينية تخصيصا، وأنه من جهة أخرى معرفة يعتبرها أصحابها أسمى من معرفة المؤمنين البسطاء وأرقى من معرفة علماء الدين الذين يعتمدون النظر العقلي:« إن العرفانيين إسلاميين كانوا أو غير إسلاميين يدعون أن طريقهم في الحصول على معارفهم، ليس الحس ولا العقل، بل هو ما يسمونه " الكشف " وهم يقصدون بذلك أن معارفهم تلك تحصل لهم مباشرة دون توسط ، دون الاستدلال عليها بشيء، وأنها إنما تلقى في قلوبهم إلقاء عندما يرتفع الحجاب بينها وبين الحقيقة العليا بالرياضات والمجاهدات »

ـالنظام المعرفي الثالث(البرهان): يعتبر الجابري أن هذا النظام هو نظام معرفي متميز بمنهج خاص في التفكير وبتقرير رؤية معينة للعالم لا تعتمد سلطة معرفية أخرى غير ذلك المنهج، نظام

معرفي احتل مواقع له في الثقافة العربية الإسلامية خلال العصور الوسطى إلى جانب النظام البياني والنظام العرفاني، وإذا كان البيان يتخذ من النص والإجماع والاجتهاد سلطات مرجعية أساسية ويهدف إلى تشييد تصور للعالم يخدم عقيدة دينية معطاة هي العقيدة الإسلامية، وإذا كان العرفان يتخذ من الكشف الطريق الوحيد للمعرفة ويهدف إلى الدخول في نوع ما من الوحدة مع الله، فإن:« البرهان يعتمد قوى الإنسان المعرفية الطبيعية من حس وتجربة ومحاكمة عقلية وحدها دون غيرها، في اكتساب معرفة بالكون ككل وكأجزاء، لا بل لتشييد رؤية للعالم يكون فيها من التماسك والانسجام ما يلبي طموح العقل إلى اضفاء الوحدة والنظام على شتات الظواهر ويرضي نزوعه الملح والدائم إلى طلب اليقين»

ثانيا: مشروع نقد العقل العربي (العقل السياسي العربي)

في المحور الثاني من مشروعه يدرس الجابري (العقل السياسي العربي) من خلال ثلاث محددات: " القبيلة " و " الغنيمة " و " العقيدة "

ـــ **القبيلة:** يرى الجابري أن القبيلة هي بشكل عام ما سبق أن عبر عنه ابن خلدون بالعصبية عند دراسة طبائع العمران في التجربة العربية الإسلامية إلى عهده، وهي :« ما نعبر عنه اليوم بـ "العشائرية " حين نتحدث عن طريقة في الحكم أو سلوك سياسي أو اجتماعي يعتمد على ذوي القربى، الأقارب منهم والأباعد، بدل الاعتماد على ذوي الخبرة والمقدرة ممن يتمتعون بثقة الناس واحترامهم، أو يكون لهم نوع ما من التمثيل الديمقراطي الحر، ولا نقصد قرابة الدم وحدها، حقيقية كانت أو وهمية، بل نقصد كذلك كل ما في معناها من القرابات ذات الشحنة العصبية مثل الانتماء إلى مدينة أو جهة أو طائفة أو حزب»

ـ **الغنيمة:** يرى الجابري أن الغنيمة تعني: « الدور الذي يقوم به العامل الاقتصادي في المجتمعات التي يكون فيها الاقتصاد قائما أساسا على " الخراج " و" الريع " وليس على العلاقات الانتاجية... فنحن نقصد بالغنيمة هنا ليس فقط مصدرها من خراج أو ريع بل نقصد كذلك طريقة صرفها وبالخصوص العطاء الذي يعيش منه أهل الدولة ومن تعلق بهم، أضف إلى ذلك ما ينتج عن العطاء من عقلية ريعية تتعارض تماما مع العقلية الإنتاجية، إذ بينما ترى هذه الأخيرة

أن العائد أو المكسب هو نتيجة لعمل إنساني منظم وكجزاء على الجهد ، ترى العقلية الريعية في العائد والمكسب رزقا أو حظا أو صدفة يرتبط بالظروف أو القدر وليس حلقة في عملية إنتاجية وما يرتبط بها من جهد ومخاطر »

ويؤكد الجابري على أن المقصود بالغنيمة نوعا خاصا من الدخل (خراج أو ريع) وطريقة صرف هذا الدخل، واستخدامه لهذا اللفظ وعدم استخدامه لمصطلحات اقتصادية أخرى لأن الموضوع حسبه ليس تحليل الاقتصاد في المجتمع العربي، لا في الماضي ولا في الحاضر، وإنما الموضوع هو العقل السياسي تفكيرا وممارسة.

ـــ **العقيدة:** يرى الجابري أن العقل السياسي اليوم يقوم كما هو معروف منذ أرسطو على الاعتقاد وليس على البرهان، وهو ليس عقل فرد بل عقل جماعة، ومعروف أن منطق الجماعة يتأسس لا على مقاييس معرفية بل على الاعتقاد والإيمان، وهو يعتبر أن العقيدة: « لا نقصد بها مضمونا معينا سواء كان على شكل دين موحى به أو على صورة ايديولوجيا يشيد العقل صرحها، وإنما نقصد أولا وأخيرا مفعولها على صعيد الاعتقاد والتمذهب... إن الإنسان يؤمن بمعزل عن كل استدلال وعن اتخاذ القرار، وقد يتساهل المرء في مسائل المعرفة ولكنه لا يقبل أن يمس في اعتقاده، قد يضحي بحياته من أجل معتقده ولكنه لا يستشهد قط من أجل إقامة الدليل على صحة قضية معرفية»

وهذه المحددات الثلاث: القبيلة، الغنيمة، العقيدة، حسب الجابري هي محددات حكمت العقل السياسي العربي في الماضي وما زالت تحكمه بصورة أو بأخرى في الحاضر، فكانت النتيجة ما تعرضنا له من إحباطات ونكسات، وهكذا :« عادت العشائرية والطائفية والتطرف الديني والعقدي لتسود الساحة العربية بصورة لم يتوقعها أحد من قبل ... فأصبحت القبيلة محركا للسياسة وأصبح الريع جوهر الاقتصاد عندنا، وأصبحت العقيدة إما ريعية تبريرية وإما خارجية نسبة إلى الخوارج»

والمطلوب إذن حسب الجابري تجديد العقل السياسي العربي، يعني:« تحويل القبيلة في مجتمعنا إلى لا قبيلة، إلى تنظيم مدني سياسي اجتماعي: أحزاب، نقابات، جمعيات حرة، مؤسسات

دستورية، بعبارة أخرى بناء مجتمع فيه تمايز واضح بين المجتمع السياسي (الدولة وأجهزتها) والمجتمع المدني (التنظيمات الاجتماعية المستقلة عن الدولة) »

و تجديد العقل السياسي العربي يعني كذلك :« تحويل الغنيمة إلى اقتصاد ضريبة، وبعبارة أخرى تحويل الاقتصاد الريعي إلى اقتصاد انتاجي ، إن الاقتصاد العربي يطغى فيه الريع بكل مكوناته وتوابعه من عطاء وعقلية ريعية، وهو يعاني في كل قطر عربي من مشاكل مزمنة لا سبيل إلى التغلب عليها، إلا في إطار تكامل اقتصادي اقليمي جهوي وفي إطار سوق عربية مشتركة. تفسح المجال لقيام وحدة اقتصادية بين الأقطار العربية هي وحدها الكفيلة بإرساء الأساس الضروري لتنمية عربية مستقلة»

كما أن تجديد العقل السياسي العربي يعني كذلك حسب الجابري :« تحويل العقيدة إلى مجرد رأي ، فبدلا من التفكير المذهبي الطائفي المتعصب الذي يدعي امتلاك الحقيقة، يجب فسح المجال لحرية التفكير، لحرية المغايرة والاختلاف، وبالتالي التحرر من سلطة الجماعة المغلقة دينية كانت أو حزبية أو إثنية، التحرر من سلطة عقل الطائفة والعقل الدوغمائي، دينيا كان أو علمانيا، وبالتالي التعامل بعقل اجتهادي نقدي».

ثالثا: مشروع نقد العقل العربي (العقل الأخلاقي العربي)

في المحور الثالث يدرس الجابري (العقل الأخلاقي العربي) ويعتبره عقل متعدد في تكوينه لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت ولا تزال مسرحا تلتقي فيه عدة موروثات ثقافية:« فمنذ عصر التدوين برز الموروث الفارسي، والموروث اليوناني، والموروث الصوفي، علاوة على الموروث العربي (الخالص) والموروث الإسلامي (الخالص)، كمكونات رئيسية وأساسية في الثقافة العربية، وبما أن كل واحد من هذه الموروثات الخمس كان امتدادا لثقافات مكتملة وراسخة، فقد كان لا بد أن يحمل معه بصورة أو بأخرى نظام القيم الخاص بالثقافة التي يمثلها. ومن هنا يمكن التمييز بين خمس نظم للقيم في الثقافة العربية الإسلامية ».

ـــ **الموروث الفارسي (أخلاق الطاعة):** اعتبر الجابري أن السبب في وصف القيم التي روجها الموروث الفارسي بكونها قيما كسروية، لأن :« السلم الذي ينظم هذه القيم ينطلق من كسرى ، كسرى الذي يخدمه الكل ولا يخدم هو أحدا، والذي يجعل نفسه وسيطا بين الله والناس ... إنها أخلاق الطاعة التي لا يكون لها معنى إلا إذا تعلق الأمر بطاعة الجماعة للواحد الفرد، أما طاعة فرد لفرد، أو طاعة فرد لجماعة فليس مما يقبله نظام القيم الكسروي هذا».

ـــ **الموروث اليوناني (أخلاق السعادة):** يميز الجابري من خلال وقوفه على الموروث اليوناني، بين ثلاث مرجعيات، يعود إليها كل ما نقل من الثقافة العربية من هذا الموروث في الأخلاق والقيم: أفلاطون وأرسطو وجالينوس، لأن :« التمييز في الفكر الأخلاقي العربي ذي الأصول اليونانية بين نزعات ثلاث أمر ضروري: نزعة طبية علمية (مرجعيتها جالينوس)، ونزعة فلسفية (ومرجعيتها أفلاطون أو أرسطو)، ونزعة تلفيقية تقتبس من المرجعيات الثلاث، وكثير منها لا يميز بين الصحيح والمنحول».

ـــ **الموروث الصوفي (أخلاق الفناء):** إن أخلاق الفناء التي كرسها الموروث الصوفي هي أخلاق اللاعمل مبدؤها ترك التدبير، وعدم التفكير في المستقبل، فليس غريبا أن ينتهي انتشار التصوف في العالم العربي والإسلامي منذ الغزالي إلى صرف أهله عن التفكير في المستقبل والعمل من أجله، لقد نظروا:« إلى الغزو الصليبي على أنه عقاب من الله لأن المسلمين ضيعوا طريق الله أي أخلاق الفناء، وكذلك قال كثير منهم عند اكتساح الغزو الاستعماري لبلاد المسلمين، والحق أن أخلاق الفناء لا تنتهي إلى فناء الأخلاق وحسب بل وإلى فناء الأمم، ولم يكن مصادفة أن قامت حركة الإصلاح في العصر الحديث على محاربة الطرقية ».

ـــ **الموروث العربي (أخلاق المروءة):** يرى الجابري أنه بعد البحث والاستقراء في مفهوم (الكرم) باعتباره القيمة المركزية التي تنتظم حولها بصورة من الصور جميع القيم الأخرى أو معظمها على الأقل، قد تبين له أن هناك قيمتين في الموروث العربي تتضمنان معنى الكرم هما (الفتوة) من جهة و (المروءة) من جهة أخرى ومعنى:«الفتوة قوة الشباب وما يرتبط بها من طول القامة واللياقة البدنية وطلاقة اللسان والقدرة على تحمل المشاق والمهارة في الطعن

والفروسية والسخاء والكرم والوفاء بالوعد والحلم وحماية الضعيف وإغاثة الملهوف والتواضع والعفو والرزانة وقوة الاحتمال والميل إلى الزعامة والسيادة مع التواضع، وأما الخصال التي تتحدد بها المروءة تشمل المظهر كما تخص الجوهر: فمن النظافة وطيب الرائحة والمفاكهة والمباسمة إلى إتيان الحق وتعاهد الضيف ومراعاة العهود والوفاء بالعقود وغير ذلك من الفضائل المعروفة والمشتركة بين معظم الثقافات، إلى تقوى الله والإدمان إلى المساجد وكثرة الإخوان في الله وقراءة القرآن وهي خصال خاصة بالمسلم ».

ــ **الموروث الإسلامي (أخلاق العمل الصالح):** إن قيمة القيم في كل دين هي " الإيمان " بالله وبتعاليمه، و لفظ " الإيمان " مقرونا في القرآن في الأغلب الأعم بألفاظ أخرى وعبارات أخرى تشير إلى وجهته الاجتماعية ومضمونه الإنساني، ومن العبارات التي تتكرر في القرآن بعد لفظ "الإيمان" عبارة "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" :« فاجتماع الإيمان والعمل الصالح تنتج عنه قيمة دينية أخرى تعتبر من أسمى القيم في كل دين هي التقوى ... و إذا كانت التقوى هي القيمة المركزية في الإسلام كـ " دين"، شأن جميع الأديان، فإن " العمل الصالح" هي القيم المركزية في الأخلاق التي تنتمي إليه: الأخلاق الإسلامية ولذلك وجب وصفها بأنها أخلاق العمل الصالح ».

ويخلص الجابري من تحليله لقيم الموروثات الخمس التي بدأت تعم الساحة الثقافية العربية، وتتحول إلى سوق للقيم، إلى أن:« أخلاق الطاعة والقيم الكسروية ، هيمنت على الثقافة العربية ووظفت الدين لفرضها، وطمست الأخلاق الإسلامية الصحيحة القائمة على العمل الصالح والمصلحة العامة».